ملف "ثقافة اللاعنف في العراق"

العنف في المجتمع العراقي (٢-٣)

أ.د.قاسم حسين صالح

العراقيون أكثر الناس تعرضاً للقسوة والعنف

شواهد تاريخية

انظروا إلى تاريخكم الحديث، تجدوا بين حوادثه الآتي:

١. قتل الملك فيصل الثاني صبيحة ١٤ تموز ١٩٥٨، وقطعت يدا الوصي و أيدي آخرين وطاف بها الناس في شوارع بغداد.

٢. وقتل في عام ١٩٥٩، وسحل بالحبال، وعلّق على المشانق، أشخاص في الموصل وكركوك.

٣. وقتل عبد الكريم قاسم في رمضان ١٩٦٣، وقتل في الشهر نفسه تحت التعذيب سكرتير الحزب الشيوعي العراقي وعدد من أعضاء الحزب وهم أحياء، وآخرون محسوبون على نظام قاسم جرى التمثيل بهم.

٤. وعقب هزيمة الجيش العراقي في الكويت عام ١٩٩١، وصل العنف بالعراقيين أنهم وضعوا إطارات السيارات في رقاب عناصر من البعثيين وأحرقوهم وهم أحياء.

٥. وبعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية في ١٩٨٨ أبيد أكثر من مئة وثمانين ألف كردي في عمليات الأنفال، وأحرقت آلاف القرى الكردية، فضلا عن مجزرة حلبجة المعروفة.

٦. وفي عام ٢٠٠٣ اكتشفت العشرات من المقابر الجماعية التي تضم رفات آلاف العراقيين، بينهم نساء وأطفال دفنوا وهم أحياء.

وتبين أن السلطة في النظام السابق استعملت وسائل العنف في التعذيب حتى مع من كان موضع شبهة، مثل وضع الشخص وهو حي في الأحماض التي تذيب اللحم والعظم، والكي والحرق وتقطيع الأعضاء.

ويخطئ من يرى أن هذا التفنن في العنف كان من مبتكرات النظام السابق، بل هو في الأصل (إرث سيكولوجي) من الأنظمة السابقة التي حكمت العراق، منذ أن صارت بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية لألف عام. ففي هذا الإرث مشاهد من العنف قد تكون أكثر بشاعة وإهانة لقيمة الإنسان، إليكم واحدا منها:

في عام ٢٩١هـ جاء جنود السلطان بالقرمطي (الحسين بن زكرويه) ومعه أكثر من ثلاث مئة من أتباعه، وقد وضعوا في فمه خشبة مخروطية وشدت إلى قفاه كهيئة اللجام. وأمر الخليفة (المكتفي) ببناء دكة في المصلى العتيق. وتجمهر الناس، وجيء بالأسرى يتقدمهم القرمطي، فصعدوا به إلى الدكة وقدّم له أربعة وثلاثون من الأسرى وقد قطّعت أيديهم وأرجلهم وضربت أعناقهم واحدا بعد آخر. ثم قدّم كبيرهم فضرب مئتا سوط، وقطعت يداه ورجلاه وكوي ثم أحرق ورفع رأسه على خشبه، وصلب بدن القرمطي في طرف الجسر الأعلى الواقع في بغداد طبعا.

وكان العراقي أكثر بني البشر- في زمانه - تعرضا للقسوة والذل والإهانة. ففي زمن الخلافة العباسية فقط، ضرب الحصار على بغداد أكثر من عشر مرات، اضطر الناس فيها إلى أكل القطط. وفي زمن الخلافة العثمانية (حوالي ٥٠٠ عام) كانت حتى العشائر في الريف تتصارع من أجل السيطرة. وكانت بغداد تنهب وتدمر وتهان لألف عام من الظلم والطغيان وإذلال أهلها من قبل الغزاة. والحقيقة - التي تعيد نفسها اليوم – أنه حيثما حكمت بغداد أو احتلتها سلطة أجنبية، ساد العنف كل أرجاء العراق.

إن ممارسة الشخصية العراقية للعنف تقدم، لمن يريد التقاط العبرة، دروسا في الكشف عن أسبابه، وأول هذه الأسباب أن الإنسان ليس مجبولا على العنف، غير أنه يكون أشد ضراوة من الوحش عندما يتعرض إلى (الإحباط اليائس).. أعني عندما يعاق أو يحرم من تحقيق أهداف وإشباع حاجات يراها مشروعة، مصحوبة بمشاعر الحرمان النفسي، وبخاصة عندما يدرك أنه أو جماعته يحصل على أقل من استحقاقه، أو أن جماعته تحصل على أقل مما تحصل عليه الجماعات الأخرى.

وثاني هذه الأسباب، أن اللاشعور الجمعي للمجتمع له دور فاعل في تحديد سلوكه الجمعي. وبما أن اللاشعور الجمعي للعراقيين معبأ بالعنف ومبرمج من ألف عام على تشغيله في حل الصراعات، ومشحون بالثأر والحقد، فإن العراقي يستحضر هذا الانفعال – لا شعوريا – في حل أزماته المعاصرة.

وثالث هذه الأسباب، أن السلطة في العراق كانت بيد السنّة من ألف عام فيما كان الشيعة في المعارضة، وأن ما حصل الآن هو تبادل للأدوار شبيه، من حيث فعله النفسي، بتبادل دوري السيد والعبد. وهذا يعني أن العنف لا بد أن يحصل في المجتمع المتعدد الطوائف والأعراق، إذا انفردت بالسلطة طائفة أو قومية بعينها.

ورابعها، أن وجود الأجنبي في أي وطن كان وبأي مسمّى كان (محتل، محرر، صديق...) تثير في ابن الوطن الإحساس بالذلّ والإهانة والتحقير والاستلاب، وتستنهض فيه – بحتمية نفسية – مشاعر الكرامة وردّ الاعتبار، تدفعه إلى العنف، ليس فقط ضد المحتل بل وضد من يستميلهم المحتل من الناس، خوفا من أن يستفرد المتعاونون مع المحتل بالسلطة وبالمصالح.

وخامسها، يذكرنا بواقعة حدثت في احتلال العراق أيضا. فقد زار القائد العسكري البريطاني (لجمن) قبيل اندلاع ثورة العشرين، المرجع الديني (الشيرازي) في النجف وعرض عليه أن يأتيه بمفاتيح روضة الإمامين في سامراء (وهي بيد السّنة) ويعطيها للشيعة، فرفض (الشيرازي) وعاد (لجمن) خائبا، وبعث بطلب الشيخ (ضاري – من وجهاء السّنة) وقال له: كيف تطيعون فتوى الشيرازي وهو مرجع للشيعة؟ فاجاب الشيخ ضاري: والشيرازي مرجعنا أيضا!

وهذا هو الموقف الذي نفتقده اليوم، وبدونه تتأجج أسباب العنف وينفجر في حرب أهلية لا يعوزها، في حاضرها الآن (٢٠٠٧) سوى الإعلان عنها.

وثمة مسألة نوجز بالإشارة إليها هي أن مجتمعنا الحالي فيه شخصيتان عراقيتان لا شخصية عراقية واحدة. الأولى، شخصية آبائنا التي كنا نفاخر بقيمها الأصيلة (الشرف، الإيثار، النخوة، التكافل الاجتماعي، الخوف من العار ومن فعل الحرام...) وهذه في طريقها إلى الاندثار. والثانية، يمثلها جيل بعمر الثلاثينات فما دون.. ولِد ونشأ في زمن حروب وكوارث متنوعة!. ومعروف أن الحرب لا تدمر فقط البنى التحتية والفوقية، إنما البنى القيمية للإنسان.

تذكروا ما أحدثته الحرب العالمية الثانية من تخلخل في القيم (مجتمع بولندا مثلا) في خمس سنوات، فكيف إذا حدثت حروب وكوارث هائلة في وطن واحد استمرت فيه ربع قرن وبدأت العدّ في ربع قرنها الثاني!.

إن العنف يولّد الكراهية، فلنتحدث عن سيكولوجيا الحب والكراهية.. ففي داخل كل قلب عراقي صوت يقول: لقد شبعنا من الكراهية فلنفتح قلوبنا للحب ونعيش الحياة كباقي البشر.

الحب والكراهية كلاهما انفعال، ويعني الانفعال Emotion شعوراً إيجابياً أو سلبياً نحو شخص أو جماعة أو موضوع يكون مصحوبا" باستثارة فسيولوجية، وبخبرة عقلية شعورية، وبسلوك صريح. وكلاهما له أساس مادي، عضوي، في الجسم هو الجهاز السمبثاوي المسؤول عن الاستثارة والجهاز الباراسمبثاوي المسؤول عن التهدئة.

هذا يعني أن البشر جميعا متساوون في المكوّن البيولوجي لانفعالي الحب والكراهية.والإشكالية هي: ما دام الناس جميعا يأتون للدنيا بتكوين بيولوجي واحد، فلماذا يختلفون في انفعالي الحب والكراهية؟. وهل يصح القول أن (س) من الناس يأتي مجبولا على الحب فيما يأتي (ص) مجبولا على الكراهية، أم أن الناس الذين عاش بينهم (س) ميالون للحب، فتعلّمه منهم، فيما كان الناس الذين عاش معهم (ص) ميالين للكراهية فتعلمها منهم ايضا؟..أي أن الحب والكراهية انفعالان مكتسبان، متعلمان، ناجمان عن الثقافة وليس عن اختلافات بيولوجية، مع أن شيخ النفسانيين " فرويد " يرى أن الإنسان يأتي مجبولا على العدوان.

وإشكالية أخرى: هل تختلف الشعوب في انفعالي الحب والكراهية؟. خذ الشعب الفرنسي مثلا تجده يحب الحب، بينما الشعب الإنجليزي.. بارد في انفعال الحب، فيما ترانا نحن العراقيين إذا أحببنا..أحببنا بجنون، وإذا كرهنا..كرهنا بحقد.

❖ رئيس الجمعية النفسية العراقية

إن مجتمعنا الحالي فيه شخصيتان عراقيتان لا شخصية عراقية واحدة. الأولى شخصية آبائنا التي كنا نفاخر بقيمها الأصيلة (الشرف، الإيثار، النخوة، التكافل الاجتماعي، الخوف من العار ومن فعل الحرام) وهذه في طريقها إلى الاندثار. والثانية يمثلها جيل بعمر الثلاثينات فما دون وُلد ونشأ في زمن حروب وكوارث متنوعة! ومعروف أن الحرب لا تدمر فقط البنى التحتية والفوقية، إنما البنى القيمية للإنسان.

عرس في القرية!

سليمة قاسم

توجهت مع مجموعة من قريباتي إلى إحدى المحافظات القريبة من بغداد لتلبية الدعوة التي وجهتها لنا قريبتي لحضور زفاف ابنتها، وبعد مسير عدة ساعات وصلنا إلى بيتها الذي كان يقع في منطقة ريفية جميلة تحيط بها الخضرة من جهاتها الأربع. استقبلتنا قريبتي ومجموعة من النسوة من جاراتها وقريبات العريس بثيابهن الزاهية وزينتهن المبالغ فيها.

تطلعت في وجوه تلك النسوة اللواتي كن يعشن على الهامش، ولم يجدن سوى الإذعان وتنفيذ أوامر الرجل، كانت أحاديثهن تدور حول ما يفعله بهن الرجال من الأزواج أو الإخوة أو الآباء وحتى الأبناء، وما يتعرضن له من سوء التعامل والضرب والإهانة وفرض الرأي، ولكن بطريقة ساخرة فيها الكثير من الهزل.

تحدثت إحدى النساء عن إصرار زوجها على تزويج ابنتها من رجل لا تحبه بعد أن فشلت هي في إقناعه بتزويجها من قريبها الذي كانت ابنتها تحبه، وبعد أن طلقت الفتاة تحملت أمها النتيجة، فقد اعتاد زوجها على توجيه اللوم لها كونها هي السبب في فشل زواج ابنتها، دون أن يحمّل نفسه الذنب.

كانت أغنية (لا تضربني لا تضرب كسرت الخيزرانة، صارلي سنة وست أشهر من ضربتك وجعانة) تصدح في أرجاء البيت كأنها تحكي عما تعانيه تلك النسوة، أو تتنبأ عن مصير العروس التي تستعد لدخول حياة جديدة يبدو أنها لن تختلف كثيرا عن حال قريباتها وبنات قريتها اللواتي يعشن نفس الظروف وإن اختلفت التفاصيل.

تحدثت امرأة ثانية لا تزال في مقتبل العمر عن زوجها الذي أصبح شيخ العشيرة رغم صغر سنه وكيف كان يجيد حل مشاكل قريته وأقاربه لكنه لا يجيد حل مشكلته معها، فقد كان لا يكرر طلبه أكثر من مرة، وفي المرة الثانية يكون طلبه مصحوبا بضربة قوية، وبكل ما تقع عليه يداه.

وقد روت امرأة أخرى قصتها وهي مشغولة بهدهدة طفلها الصغير كيف تزوج عليها زوجها مرة أخرى، بحجة أنها عاجزة عن إنجاب ولد يحمل اسمه. وكانت المفارقة الطريفة أن زوجته الجديدة أنجبت بنتا وهي ولدت صبيا، وحين طالبته بتطليقها رفض ذلك بحجة أنها أصبحت أم ابنته.

أما أكثر النساء سخرية فقد أكدت أن تصرفات زوجها في النهار مرتبطة ارتباطا وثيقا بما يفعله في المساء، ضحكت النسوة بعد أن عرفن ما تقصده تلك المرأة المشاكسة.

استمرت النسوة بسرد معاناتهن وبأسلوب ساخر، فأمرمناقشتها حتى مع أقرب الأقرباء مرفوض رفضا باتا وفقا لعرف المجتمع الذي يرى في موضوعة العنف شأنا عائليا بحتا.

هدأت النسوة بعد أن شعرن بالتعب من كثرة الرقص والحديث عن معاناتهن اليومية، وهنا جاء دوري ورحت أحدثهن عن الظلم الذي يتعرضن له، وكيف أن المرأة هي كائن لا يختلف عن الرجل في شيء، ولها حقوق مثلما عليها واجبات، وعلى الرجل أن يحترمها ويقدر مشاعرها وأنها تستطيع أن ترفض ما يفعله بها.

سكتت النسوة وكأنّ الطير فوق رؤوسهن، ورحن بعدها يطرحن الأسئلة عما يمكن فعله للتخلص من اضطهاد الرجل وتحكمه فيهن، أجبت عنها بوضوح وبساطة وبطريقة تتلاءم مع درجة استيعابهن.

أما أم العروس ويبدو أن حديثي لم يرق لها فقد سألتني عما فعلته أنا بالذات للدفاع عن المرأة، أخبرتها أنني سخرت قلمي للدفاع عن قضايا بنات جنسي وكشف ما يتعرضن له أولاً، وثانياً أنا عضوة في سكرتارية إحدى منظمات المجتمع المدني التي لها تاريخ مشرف في الدفاع عن المرأة.

كان لابد أن أطرح حلا معينا بدلا من الكلام، اقترحت مثلا تنظيم تظاهرة لنساء القرية وللمدافعات عن حقوقهن في ساحة التحرير، أما ردود الأفعال فقد كانت متباينة، بعضهن رفضن الفكرة رفضا قاطعا، أما البعض الآخر فقد اقترحن أن يذهبن للساحة منقبات خوفا من بطش الرجال بهن، وبالنتيجة لم توافق أي امرأة على الذهاب معي إلى ساحة التحرير!

ساد صمت مطبق حين دق موبايل أم العروس، طريقتها في الحديث أوحت أن زوجها هو المتصل، بعد انتهاء المكالمة طلبت مني أم العروس مرافقتها لجلب حاجة ما، اعتذرت عن الذهاب معها لكوني متعبة، وبعد مدة عادت أم العروس لكن وضعها غير الطبيعي أثار انتباهي، وحين جاء أهل العريس لاصطحاب العروس إلى بيت الزوجية، بكت أمها بكاء مريرا، اقتربت منها لتهدئتها، فأشارت إلى خدها الذي احمر فهمست في أذني أن زوجها قد فعل ذلك بها حين ذهبت للبيت قبل قليل لأنها نسيت كيّ ثوبه، ثم همست في إذني مرة أخرى قائلة" أنا مستعدة للذهاب إلى ساحة التحرير"!

يدافعنّ عن حقوقهنّ

الرؤية الشمولية

ناظم محمد العبيدي

استطاع العقل العلمي أن يتجاوز التوهان في ظواهر الحياة وربطها بقوانينها الشمولية، وبهذه الرؤية يمكن الخروج من التخبط بنتائج دقيقة، لكن ما يجري عندنا هو الفوضى الذهنية التي درج عليها العقل البسيط ذو التوجهات الانتقائية، فلا يمكن العبور من مقدمة ما إلى حقيقة كلية تغنينا عن البقاء في دائرة واحدة، ولهذا تبدو الحقائق لمن اعتاد أن يجزئها دون النظر إلى علاقاتها مع بعضها كوحدات منفصلة، فهو مشغول بذلك الجزء وتفاصيله ولا يكترث لعلاقته مع الأجزاء الأخرى، ويمكن تلمس الجانب البدائي في هكذا آلية ذهنية كما يقول علماء الأنثروبوجيا، حين كان الإنسان في العصور السحيقة الأولى لا يفرق بين ذاته وبين مكونات الطبيعة، فقد غابت " أناه " ولم يعرف القوانين الكلية التي تحكم الطبيعة من حوله، فراح يغرق في خضم أساطيره بدافع الجهل والخوف من مجاهيل هذا العالم من حوله، بيد أن العقل الحديث وبعد أن تراكمت لديه المعرفة تجاوز قرون الجهل وتمكن من صنع أعظم حضارة عرفتها البشرية، بصرف النظر عن الجوانب السلبية التي رافقتها طبعاً، وصارت النظرة التحليلية إلى مظاهر الوجود هي السمة الأبرز، ومن المثير حقاً أن جمهورا واسعا في مجتمعات العالم الثالث مازالت تحيا وهي تحمل تلك التصورات القديمة، والنظرة المجتزأة إلى ما يحيطها من ظواهر، فما زلنا ننظر إلى تفاصيل حياتنا اليومية دون الوعي بتأويلاتها المنطقية، فكيف نقرأ حادثة مثل إهمال الرجل العسكري الذي يمثل النظام العام للدولة وهو يقف في السيطرة متحدثاً بهاتفه المحمول مثلاً؟ يفعل ذلك مشيحاً بوجهه بعيداً عن طابور السيارات الممتد، وهو يضحك مع محدثه الغائب الحاضر، هاهنا تختفي الدلالة في العقل الانتقائي لهذه الحادثة ويصبح الموضوع بكل ما ينطوي عليه من مفارقات محصوراً بهذا الشخص تحديداً ولا يرتبط بأي شيء آخر، مع أن واقع الحال يشير إلى معنى آخر جعل العسكري في حالة من اللامبالاة بالناس الذين كانوا يراقبونه في نفاد صبر، وربما بكثير من الحقد، إن الغاية من السيطرة تلاشت وحل مكانها الفعل المجرد " الروتيني"، حيث تبرز حقيقة أننا نؤدي أفعالنا عادة. وفي سياق عام مشجع على نمط متكاسل ولا مبال. لا بدافع تعززه القناعة الذاتية أو حتى احترام للقانون، بقدر ما نسعى إلى إدامة الشكل المطلوب منا، ذلك الشكل المراد إيجاده بديلاً عن الحقيقة الغائبة "التفتيش بحثاً عن المتفجرات أو ما يسيء إلى الأمن"، والحقيقة أن الأشخاص يتصرفون. علموا بذلك أم لم يعلموا. بحسب تأثيرات المحيط الذي هم فيه، ويخضعون بالضرورة لمتطلبات وجودهم داخل تلك الشبكة من العلاقات، فالفرد الموجود في أي مكان من العالم محكوم بتلك الشبكة والتي تحمل مسميات: القانون، التقاليد.

والغريب أن ظاهرة الانتقائية في التفكير عندنا هي السمة السائدة، وربما كانت وراء الفشل المرافق للكثير من المشاريع التي تسعى إلى الإصلاح أو معالجة الأخطاء، لأن العقل التجزيئي لا يلتفت إلى جذر المشكلات ويظل مسجوناً في مظاهرها الخارجية، ومن المفيد هنا أن نشير إلى ملاحظة الفيلسوف "برجسون" عندما تحدث قبل قرن من الزمن إلى طبيعة العقل الإنساني، وكيف يوقف ديمومة الحياة التي هي في جريان متصل عند نقطة ما لكي يتمكن من رؤيتها ودراستها، وهذه تقنية مفيدة إذا استطاع الإنسان أن يتجاوزها إلى ماهو أبعد، أي النظر بطريقة كلية إلى أية ظاهرة ولا يكتفي بالوقوف عند تبدياتها الخارجية، ولأننا أدمنا النظر بتلك الطريقة المضيعة للمعنى، والاكتفاء بمظاهر الأشياء فقد صنعنا الكثير من الاتحادات والمؤسسات والتجمعات والتشكيلات، ولكن ماهي محصلة كل ذلك؟